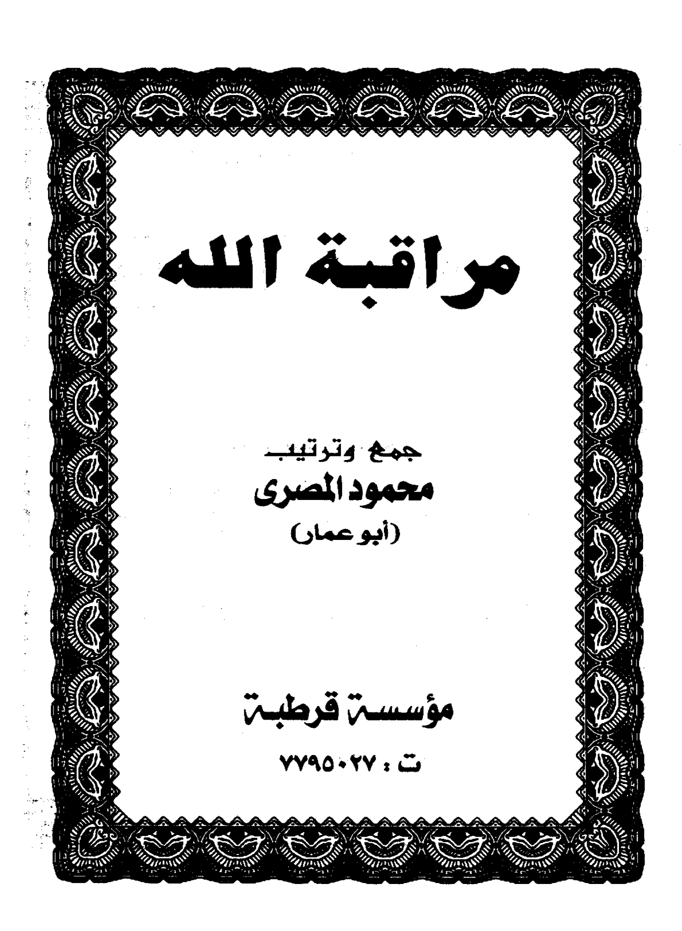
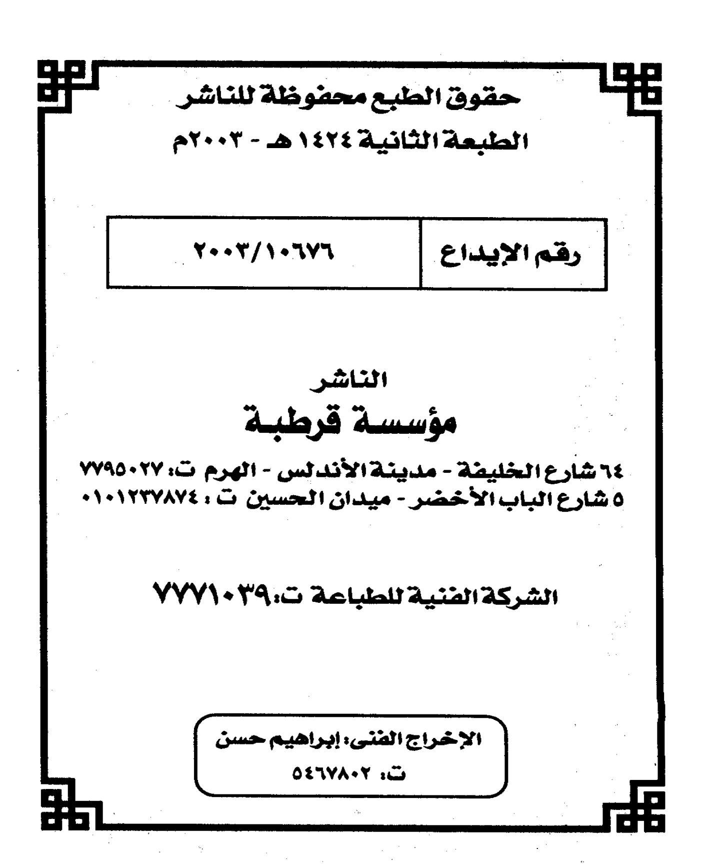


مراقبة الله

جمع وترتيب
محمود المصرى
(أبو عمار)

مؤسسة قرطبة
ت : ٧٧٩٥٠٢٧



الطبعة الثانية ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع	٢٠٠٣/١٠٦٧٦

الناشر

مؤسسة قرطبة

٦٤ شارع الخليفة - مدينة الأندلس - الهرم ت: ٧٧٩٥٠٢٧
٥ شارع الباب الأخضر - ميدان الحسين ت: ٠١٠١٢٣٣٧٨٧٤

الشركة الفنية للطباعة ت: ٧٧٧١٠٣٩

الإخراج الفني: إبراهيم حسن
ت: ٥٤٦٧٨٠٢

بين يدى الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء: ١)

أما بعد..

فإن المتأمل فى حال الأمة المسلمة ليعلم يقيناً أنها ما ذلّت بعد عزة، وما جهلت بعد علم، وما ضعفت بعد قوة إلا بعد أن ابتعدت كثيراً عن طاعة ربها وتركت سُنة نبيها ﷺ ولم تراقب الله فى أقوالها وأعمالها... فكانت النتيجة العادلة أن الله أذل الأمة لأذل وأحقر الأمم من الشرق الملحد والغرب الكافر... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فالأمة المسلمة فى أشد الحاجة إلى أن تنفض غبار الغفلة لتقوم وتحمل راية الإسلام خفّاقة عالية، ولن يكون ذلك إلا بعد أن يراقب كل فرد من أفرادها ربه فى كل صغيرة وكبيرة.. وبذلك تنصلح الأمة وينصلح حالها مع خالقها ـ جل وعلا ـ ومن أجل ذلك كتبت تلك الوريقات لأذكّر نفسى وإخوانى بمراقبة الله.. عسى الله أن يرزقنا خشيته فى السر والعلن، وأن يجعلنا من جنود الخلافة المسلمة، وأن يردّ (الأقصى الأسير) إلى المسلمين مرة أخرى.. اللهم آمين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصرى (أبو عمار)

مراقبة الله

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على كل جارحة بما اجترحت، المطّلع على ضمائر القلوب إذا هجست، الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت، الذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة فى السموات والأرض تحرّكت أو سكنت، المحاسب على النقير والقطمير، والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت، المتفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت، المتطوّل بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت، وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدّمت وأخرت، فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت، فسبحان من عمّت نعمته كافة العباد وشملت، واستغرقت رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة وغمرت، فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت، وبيُمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت، وبحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت، وبتأييده ونصرته انقطعت مكائد الشيطان واندفعت، وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت، وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت، فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإدناء والإسعاد والإشقاء، والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله

سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء.

أما بعد: فقد قال الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المجادلة: ٦).

وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ (البقرة: ٢٣٥). فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقَشون فى الحساب ويطالبون بمثاقيل الذرّ من الخطرات واللحظات، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسَب خفّ فى القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه، وحَسُن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت فى عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزى والمقت سيئاته، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله (الإحياء: ٥/٤٧).

الإحسان قرين المراقبة

إنه الشعور بأن فاطر السموات والأرض مطّلعٌ عليك فى كل صغيرة وكبيرة. . . . تلك المراقبة التى تجلب لك خشية الله فى السر والعلن ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الملك: ١٢).

إنها رقابة الحق تبارك وتعالى التى تسقط أمامها رقابة البشر، فإن رقابة البشر قاصرة، فالبشر يغفل وينام ويسهو ويموت، والله جل وعلا حىٌّ لا يموت، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء فى الليلة الظلماء، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة: ٧).

ـ حينما تستحضر تلك المعانى تعلم أن عين الله تلاحقك فى سكناتك وحركاتك فتجعل حركاتك وسكناتك طاعة لله جل وعلا فى كل زمان ومكان ممتثلاً لأمر النبى ﷺ: «اتق الله حيثما كنت»، وقوله: «احفظ الله يحفظك».

ولذا لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال له: وما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (أخرجه مسلم).

وهذا هو تحقيق معنى: «أشهد أن لا إله إلا الله».

فالمؤمن بعقيدته الراسخة وضميره الحى يستمد قوته من إيمانه بالله واليوم الآخر.. تلك القوة الإيمانية التى تجعله مراقبًا لله فى كل صغيرة وكبيرة؛ لأنه يعتقد أن الله معه حيث كان، وأنه لا يخفى عنه خافية.

والمؤمن يعلم يقينًا أنه ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٨) وأن الملائكة تكتب أعماله وأقواله، فإذا جاء يوم القيامة يجد ما كان يحسبه هينًا وهو عند الله عظيم، ويعلم أن النهاية والمستقر إما فى الجنة، وإما فى النار. فيكون ذلك رادعًا له عن ارتكاب المحظور وحاديًا له لفعل المأمور فيصبح ويمسى مراقبًا لربه ومحاسبًا لنفسه، فلا يغش ولا يخدع ولا يخون ولا يستكبر؛ لأنه يعلم أنه مسافر فى تلك الحياة الدنيا، وأنه موقوف بين يدى الحق – جل جلاله – وأن أعماله كلها ستوزن بميزان إلهى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٧).

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

الناس منذ خُلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطٌّ عن رحالهم إلا فى الجَنة أو النار. والعاقل يعلم أن السفر مبنىٌّ على المشقة وركوب الأخطار. ومن المحال عادةً أن يُطلَبَ فيه نعيمٌ ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر. ومن المعلوم أن كلَّ وطأة قدَم أو كلَّ آن من آنات السفر غيرُ واقفة، ولا المكلَّفُ واقف، وقد ثبت أنّه مسافر على الحال التى يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير (الفوائد: ص: ٢٧٠).

إنه عليمٌ بذات الصدور

قال تعالى: ﴿**أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ (هود: ٥).

قال الإمام الشنقيطى ـ رحمه الله ـ :

بيَّن الله تعالى فى هذه الآية الكريمة أنه لا يخفى عليه شىء، وأن السر كالعلانية عنده، فهو عالم بما تنطوى عليه الضمائر وما يعلَن وما يُسَر، والآيات المبينة لهذا كثيرة جدًا كقوله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ**

فَاحْذَرُوهُ﴾ (البقرة: ٢٣٥).

ثم قال تحت عنوان «تنبيه هام»:

اعلم أن الله تبارك وتعالى ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظًا أكبر ولا زاجرًا أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها فى القرآن، من أنه تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه، رقيب عليهم، ليس بغائب عما يفعلون، وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم مثلاً ليصير به كالمحسوس فقالوا: لو فرضنا أن ملكاً قتّالاً للرجال سفّاكًا للدماء، شديد البطش والنكال على من انتهك حرمته ظُلمًا. . . . وسيّافه قائم على رأسه، والنطع مبسوط للقتل، والسيف يقطر دمًا، وحول هذا الملك الذى هذه صفته جواريه وأزواجه وبناته، فهل ترى أن أحدًا من الحاضرين يهتم بريبة أو بحرام يناله من بنات الملك وأزواجه، وهو ينظر إليه، عالم بأنه مطلع عليه؟ لا وكلا، بل جميع الحاضرين يكونون خائفين، وجلة قلوبهم، خاشعة عيونهم، ساكنة جوارحهم، خوفًا من بطش ذلك الملك.

ولا شك ولله المثل الأعلى أن رب السموات والأرض جل وعلا أشد علمًا، وأعظم مراقبة، وأشد بطشًا وأعظم نكالاً وعقوبة من ذلك الملك، وحماه فى أرضه محارمه، فإذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه جل وعلا ليس بغائب عنه، وأنه مطّلع على ما يقول وما يفعل وما ينوى، لان قلبه، وخشى الله

تعالى، وأحسن عمله لله جل وعلا (أضواء البيان: ٣/ ١٠).

وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٤).

قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ: أى رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم، وأين كنتم، من بر أو بحر، فى ليل أو نهار، فى البيوت أو القفار، الجميع فى علمه على السواء، وتحت بصره وسمعه، فيسمع كلامكم، ويرى مكانكم، ويعلم سركم ونجواكم (تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٠٤).

والآيات الدالة على وجوب مراقبة العبد لربه كثيرة؛ لأن المراقبة هى أساس كل خير وهى الزاجر عن كل شر.

عمرك هو كنزك الثمين

واعلم أيها الأخ الحبيب وأيتها الأخت الفاضلة أن عمرك هو كنزك الحقيقى فلا تفرط فيه ولا تشغله إلا بما يصلح دينك ودنياك.

ــ يقول صاحب مختصر منهاج القاصدين:

ــ واعلم يا أخى الحبيب أن التاجر كما يستعين بشريكه فى التجارة طلبًا للربح ويشارطه ويحاسبه. كذلك العقل يحتاج إلى

مشاركة النفس وأن يوظّف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ثم لا يغفل عن مراقبتها فإنه لا يأمن خيانتها وتضييعها رأس المال.... ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه التجارة ربحها الفردوس الأعلى فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم من تدقيقه بكثير من أرباح الدنيا فحتمٌ على كل ذى عزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها وخطراتها؛ فإن كل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها. فإذا فرغ العبد من فريضة الصبح ينبغى أن يفرّغ قلبه ساعة لمشارطة نفسه فيقول للنفس: ما لى بضاعة إلا العمر فإذا فَنِى منى رأس المال، وقع اليأس من التجارة وطلب الربح.... وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه وأخّر أجلى فأنعمَ علىَّ به ولو توفّانى لكنت أتمنى أن يُرجعنى إلى الدنيا حتى أعمل فيها صالحًا فاحسبى يا نفسى أنك قد توفيت ثم رُددت فإياك أن تضيّعى هذا اليوم واعلمى أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وأن العبد يُنشر له بكل يوم أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيُفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورًا من حسناته التى عملها فى تلك الساعة فيحصل له من السرور والسعادة بمشاهدة تلك الأنوار ما لو وُزِّع على أهل النار لأدهشتهم عن الإحساس بألم النار.

ويُفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح ريحها ويغشاه ظلامها وهى الساعة التى عصى الله تعالى فيها فيحصل له من الفزع والخزى ما لو قُسّم على أهل الجنة لنغّص عليهم نعيمهم.... ويُفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسوؤه ولا ما يسرّه وهى الساعة التى نام فيها أو غفل أو اشتغل بشىء من المباح ويتحسر على خلوّها ويناله ما نال القادر على الربح الكثير إذا أهمله حتى فاته وعلى هذا تُعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه اجتهدى اليوم فى أن تعمّرى خزائنك ولا تدعيها فارغة ولا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك.

ـ قال عمر رضى الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا» فإنه أخفّ عليكم فى الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعرض الأكبر. ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ (الحاقة: ١٨)

ـ قال الحسن: رحم الله عبدًا وقف عند هَمّه؛ فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر (مختصر منهاج القاصدين: ٣٧٠).

صفحات مضيئة فى محاسبة النفس

قال الحسن: أدركت أقوامًا وصحبت طوائف منهم، ما كانوا

يفرحون بشىء من الدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شىء منها أدبر، ولهى كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطؤونه بأرجلكم، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثور ولا أمَرَ أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئًا قط، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنَّهم الليل فقيام على أطرافهم، يفترشون وجوههم، تجرى دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم فى فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا فى شكرها وسألوا الله أن يتقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم، والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة.

ويُحكى أنّ قومًا دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه فى مرضه، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم، فقال عمر له: يا فتى ما الذى بلغ بك ما أرى؟ فقال: يا أمير المؤمنين أسقام وأمراض، فقال: سألتك بالله إلا صدقتنى! فقال: يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مُرّة وصغر عندى زهرتها وحلاوتها واستوى عندى ذهبها وحجرها، وكأنى أنظر إلى عرض ربى (أى العرض على ربى) والناس يُساقون إلى الجنة والنار، فأظمأت لذلك نهارى وأسهرت ليلى، وقليل حقير كل ما أنا فيه فى جنب ثواب الله وعقابه.

وقال أبو نعيم: كان داود الطائى يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز، فقيل له فى ذلك فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية.

وقال أبو الدرداء: لولا ثلاث ما أحببت العيش يومًا واحدًا: الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله فى جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام، كما يُنتقى أطايب التمر. وكان الأسود بن يزيد يجتهد فى العبادة ويصوم فى الحرّ حتى يخضرّ جسده ويصفر، فكان علقمة بن قيس يقول له: لِمَ تعذّب نفسك؟ فيقول: كرامتها أريد. وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له: إن الله عز وجل لم يأمرك بكل هذا؟ فقال: إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الاستكانة شيئًا إلا جئت به.

وكان ثابت البنانى قد حُببت إليه الصلاة، فكان يقول: اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلى لك فى قبره فائذن لى أن أصلى فى قبرى.

وكان أبو مسلم الخولانى قد علق سوطًا فى مسجد بيته يخوّف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومى فوالله لأزحفن بك زحفًا حتى يكون الكلل منك لا منى، فإذا دخلت الفترة (أى إذا أصابه الفتور والكسل) تناول سوطه وضرب به ساقه، ويقول: أنت أولى بالضرب من دابتى وكان يقول: أيظن

أصحاب محمد ﷺ أن يستأثروا به دوننا، كلا والله لنزاحمهم عليه زحامًا حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً.

وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له: القيامة غدًا ما وجد متزايدًا.

وقيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهًا؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورًا من نوره.

وقال عبد الله بن قيس: كنا فى غزاة لنا فحضر العدو، فصيح فى الناس فقاموا إلى المصاف فى يوم شديد الريح، وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول: أى نفسى ألم أشهد مشهد كذا فقلت لى؛ أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت! ألم أشهد مشهد كذا وكذا، فقلت لى؛ أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت! والله لأعرضنَّك اليوم على الله أخذك أو تركك! فقلت لأرمقنّه اليوم، فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان فى موضعه، حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل، فوالله ما زال ذاك دأبه حتى رأيته صريعًا، فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة.

وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة. وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيًا أو التصدق بجميع ماله. كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها.

فإن قلت: إن كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها؟

فأقول: سبيلك فى ذلك أن تُسمعها ما ورد فى الأخبار من فضل المجتهدين. ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد فى العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدى به. وكان بعضهم يقول: كنت إذا اعترتنى فترة فى العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعًا. إلا أن هذا العلاج قد تعذَّر إذ قد فُقد فى هذا الزمان من يجتهد فى العبادة اجتهاد الأولين، فينبغى أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شىء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم.

قدوات فى المراقبة من نساء السلف الصالح

فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها: يا نفس لا تستنكفى أن تكونى أقل من امرأة.... فأخسس برجل يقصر عن امرأة فى أمر دينها ودنياها! ولنذكر الآنَ نبذة من أحوال المجتهدات؛ فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها، ثم قالت: إلهى قد غارت النجوم ونامت العيون وغلّقت الملوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامى بين يديك، ثم

تُقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت: إلهى هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فأهنأ أم رددتها على فأُعزى؟ وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقيتنى، وعزتك لو انتهرتنى عن بابك ما برحت لما وقع فى نفسى من جودك وكرمك.

ويروى عن (عجرة) أنها كانت تحيى الليل، وكانت مكفوفة البصر، فإذا كان فى السحر نادت بصوت لها محزون: إليك قطع العابدون دُجى الليالى يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك، فبك يا إلهى أسألك لا بغيرك أن تجعلنى فى أوّل زمرة السابقين وأن ترفعنى لديك فى عليين فى درجة المقربين، وأن تُلحقنى بعبادك الصالحين، فأنت أرحم الرحماء، وأعظم العظماء، وأكرم الكرماء يا كريم، ثم تخرّ ساجدة، فيُسمع لها وجبة (أى: سقطة) ثم لا تزال تدعو وتبكى إلى الفجر.

وقال محمد بن معاذ حدثتنى امرأة من المتعبدات قالت: رأيت فى منامى كأنى أُدخلت الجنة، فإذا أهل الجنة قيام على أبوابها، فقلت: ما شأن أهل الجنة قيام؟ فقال لى قائل: خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التى زُخرفت الجنان لقدومها! فقلت: ومن هذه المرأة؟ فقيل: أمة سوداء من أهل الأيكة يقال لها: شعوانة. قالت: أختى والله، قالت: فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها فى الهواء فلما رأيتها ناديت: يا أختى أما

ترين مكانى من مكانك فلو دعوت لى مولاك فألحقنى بك؟ قالت: فتبسمت إلىَّ وقالت: لم يأن الأوان لقدومك ولكن احفظى عنى اثنتين: الزمى الحزن قلبك وقدّمى محبة الله على هواك ولا يضرك متى مُتّ.

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ويزيد حرصك، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك، فإنك إن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله.

فضل مراقبة الله عز وجل

إن الإنسان إذا راقب ربه؛ فإن ذلك من أنفع الأدوية له فى علاج الغفلة، وذلك لأنه يعلم أن ربه لا تأخذه سِنة ولا نوم. وكذلك فالمراقبة علاج نافع فى إصلاح النية فهو يوقن أن الله مطّلع عليه، وأنه يعلم السر وأخفى، ولذلك نقول إن الإنسان لا ينصلح حاله إلا بعلمه يقينًا أن الله مطّلع عليه، وأنه لا يخفى عليه من أمره شىء ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ (الملك: ١٤).

قال لقمان: إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة.

وقال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى؛ فسأله عن تفسيره فقال: كن أبدًا كأنك ترى الله عز وجل. وقال أبو عثمان: قال

لى أبو حفص: إذا جلست للناس فكن واعظًا لنفسك وقلبك ولا يغرّنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك.

وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه: كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ؟ فدعا بعدّة طيور وناول كل واحد منهم طائرًا وسكينًا، وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره فى موضع لا يراه فيه أحد، ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم، فرجع كل واحد بطائره مذبوحًا ورجع الشاب والطائر حى فى يده، فقال: مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك؟ فقال: لم أجد موضعًا لا يرانى فيه أحد، إذ الله مطلع علىَّ فى كل مكان، فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا: حق لك أن تُكرَم.

وقال محمد بن على الترمذى: اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه.

وحُكى أن زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام قامت فغطت وجه صنم كان لها فقال يوسف: مالك؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحى من مراقبة الملك الجبار!

وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها، فقالت له: ألا تستحى؟ فقال: ممن أستحى وما يرانا إلا الكواكب؟ قالت: فأين مكوكبها؟... وقال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر؟ فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه.

وقال مالك بن دينار: رحم الله امرءًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألستِ صاحبة كذا؟ ثم زمّها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله فكان له قائدًا.

وقال إبراهيم التيمى: مثّلتُ نفسى فى الجنة آكل من ثمراتها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها.. ثم مثلتها فى النار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها.. ثم قلتُ لنفسى: يا نفس، أى شىء تريدين؟ قالت: أُريد أن أُرَدَّ إلى الدنيا، فأعمل صالحًا، قال: فأنتِ فى الأمنية فاعملى!!

وكان الأحنف بن قيس يجىء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار، ثم يقول لنفسه: يا حُنيف، ما حملكَ على ما صنعتَ يوم كذا؟ ما حملكَ على ما صنعتَ يوم كذا؟

ومن أساليب محاسبة النفس ما رُوِىَ عن توبة (ابن الصمة) وكان محاسبًا لنفسه أنه حاسَبها يومًا، فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها، فإذا هى أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة

يوم، فصرخ وقال: يا ويلتى؟ ألقى الله بأحد وعشرين ألف ذنب! فكيف وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب!

وبالجملة فمحاسبة النفس ومراقبة الله تجعل القلب والجوارح فى يقظة دائمة وخوفٍ دائم وطاعة دائمة.. وإذا وقع الإنسان فى الذنب فسرعان ماَ يرجع ويتوب إلى خالقه جل وعلا.

وحسبك من كل هذا أن تكون ذاكرًا لله على الدوام فى كل زمان ومكان خائفًا من بطشه وعقابه.. خائفًا أن يحرمك رؤيته والنظر إلى وجهه ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ (المطففين: ١٥).

وأخيرًا فإن ثمرة الخشية التى تخرج من غصن المراقبة سبب من أسباب النجاة، فقد قال الصادق المصدوق ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات وثلاث منجيات وثلاثٌ كفارات وثلاثٌ درجات» — وذكر فيه — «وأما المنجيات: فالعدل فى الغضب والرضا والقصد فى الفقر والغِنى وخشية الله فى السر والعلانية»

(صحيح الجامع: ٣٠٤٥)

النبى ﷺ يعلم أمته مراقبة الله

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء، من استحيا من الله حق الحياء

فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلا، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» (صحيح الجامع: ٩٣٥)

قال المناوى فى الفيض: «استحيوا من الله حق الحياء» بترك الشهوات والنهمات، وتحمل المكاره على النفس حتى تصير مدبوغة، فعندها تطهر الأخلاق، وتشرق أنوار الأسماء فى صدر العبد، ويقرر علمه بالله فيعيش غنيًا بالله ما عاش.

ولذا قال ﷺ: «ما كرهت أن يراه الناس منك فلا تفعله بنفسك إذا خلوت» (السلسلة الصحيحة: ١٠٥٥).

وقال أبو القاسم الحكيم: «من خاف شيئًا هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه».

وقيل للإمام الشعبى: يا عالم. قال: إنما العالم من يخشى الله، وذلك لقول الله عز وجل: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ (فاطر: ٢٨).

وقال رسول الله ﷺ: «إن رجلاً حضره الموت فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لى حطبًا كثيرًا وأوقدوا فيه نارًا، حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى فامتحشت (أى صارت فحمًا) فخذوها فاطحنوها ثم انظروا يومًا راحًا (شديد الرياح) فاذروه فى اليم.. ففعلوا فجمعه الله فقال

له: لِمَ فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك فغفر الله له»

(متفق عليه).

وقال ﷺ: «من استطاع منكم أن يكون له خِبء من عملٍ صالح فليفعل» (صحيح الجامع: ٦٠١٨).

وهكذا تكون المراقبة لله عز وجل بأن ينشغل الإنسان المؤمن بعين الله ومراقبته ولا ينشغل بعين الناس طلبًا للحمد والثناء، فقد قال ﷺ: «من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس، ومن أسخط الناس برضا الله كفاه الله مؤنة الناس»[1].

أحوال النبى ﷺ مع خشيته لله

وها هو سيد الدعاة وخير مَن عَبَد الله حق العبادة وخشيه حق الخشية يُعلم أمته كيف تخاف ربها وتراقبه فى سكناتها وحركاتها وفى سرها وعلانيتها.

قال ﷺ: «إنى أرى ما لا ترون أطَّت السماء وحُق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله تعالى، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش ولخرجتم إلى الصُعُدات تجأرون إلى الله تعالى» (صحيح الجامع: ٢٤٤٩).

وروت السيدة عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا تغيّر الهواء وهبّت ريح عاصفة يتغير ويتردد فى الحجرة

ويدخل ويخرج، كل ذلك خوفًا من عذاب الله (متفق عليه).

وروى عبد الله بن الشخير: أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل فى الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المِرجَل.

(صحيح أبى داود: ٧٩٩)

وكيف لا يخاف ربه وهو أعلم الناس بربه.. وقد قال تعالى: «وعزتى وجلالى لا أجمع لعبدى أمنين ولا خوفين إن هو أمننى فى الدنيا أخفته يوم أجمع عبادى، وإن هو خافنى فى الدنيا أمنّته يوم أجمع عبادى» (صحيح الجامع: ٤٣٣٢).

فكان النبى ﷺ يقوم الليل حتى تدمى قدماه، وكان يسأل ربه ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك»

(صحيح الجامع: ١٢٦٨)

بل أخبر عن نفسه فقال ﷺ: «والله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم خشية له» (متفق عليه).

خوف الملائكة والأنبياء

فأما عن الملائكة فقد قال الله عنهم: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (النحل: ٥٠).

قال ﷺ: «مررت ليلة أُسرى بى بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس البالى من خشية الله تعالى» (صحيح الجامع: ٥٨٦٤).

وقال ﷺ لجبريل: «مالى لا أرى ميكائيل يضحك؟ قال: ما ضحك ميكائيل منذ خُلقت النار» (رواه أحمد بسندٍ جيد).

قال وهب: بكى آدم عليه السلام على الجنة ثلاثمائة عام، وما رفع رأسه إلى السماء بعدما أصاب الخطيئة.

وقال وهيب بن الورد: لما عاتب الله تعالى نوحًا عليه السلام فى ابنه فقال ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود: ٤٦) بكى ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء.

وقال أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ: كان يُسمع لصدر إبراهيمٍ عليه السلام إذا قام إلى الصلاة أزيز من بُعدٍ خوفًا من الله عزّ وجل.

وقيل: كان داود عليه السلام يعوده الناس يظنون أنه مريض، وما به إلا شدة الفرق من الله عز وجل أى الخوف.

وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت يقطر جلده دمًا.

خوف أصحاب النبى ﷺ

ها هو أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ يقول: وددت

أنى شعرة فى جنب عبدٍ مؤمن، وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل.

وهذا عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قرأ سورة الطور حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه، . . . وقال لابنه وهو يموت: ويحك ضع خدى على الأرض عساه يرحمنى، ثم قال: ويل أمى إن لم يغفر لى ــ ثلاثاً ــ ثم قضى، وكان يمر بالآية فى وِرده بالليل تخيفه فيبقى فى البيت أيامًا يُعاد يحسبونه مريضًا، وكان فى وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء.

وقال له ابن عباس: «مصَّر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل»، فقال: «وددت أن أنجو لا أجر ولا وزر».

وهذا عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ كان إذا وقف على القبر يبكى حتى يبّل لحيته، قال: «لو أننى بين الجنة والنار ولا أدرى إلى أيتهما أصير لاخترت أن أكون رمادًا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير».

وهذا أبو الدرداء ــ رضى الله عنه ــ كان يقول: «لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت؛ ما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شربتم شرابًا على شهوة أبدًا، ولا دخلتم بيتًا تستظلون به،

ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم، ولوددت أنى شجرة تُعضد ثم تؤكل».

وكان ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أسفل عينيه مثل الشراك البالى من كثرة الدموع.

وقال علىّ رضى الله عنه وقد سلّم من صلاة الفجر، وقد علاه كآبة وهو يقلب يده: «لقد رأيت أصحاب رسول الله ﷺ فلم أر اليوم شيئًا يشبههم، لقد كانوا يصبحون شُعثًا صفرًا غبرًا بين أعينهم أمثال رُكب المعزى؛ قد باتوا سُجدًا وقيامًا يتلون كتاب الله، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا وذكروا الله تمادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح، وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم، والله فكأنى بالقوم باتوا غافلين». ثم قام فما رؤى بعد ذلك ضاحكًا حتى ضربه ابن ملجم.

وقال موسى بن مسعود: «كنا إذا جلسنا إلى سفيان كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه».

سلفنا الصالح وثمرات المراقبة

وإليك يا أخى تلك النماذج من المراقبة وكيف كانت ثمرتها مع سلفنا الصالح.

أصدر عمر رضى الله عنه قانونًا يمنع غش اللبن بخلطه

بالماء، ولكن هل تستطيع عين القانون أن ترى كل مخالف، وأن تقبض على كل خائن وغاش؟!.

القانون أعجز من هذا؛ فإن عين الإنسان لها حدود لا تتجاوزها... أما عين الله فلا يعجزها شيء... فالإيمان بالله والمراقبة له هو الذى يعمل عمله فى هذا المجال.

وهنا تُحكى القصة المشهورة حكاية الأم وابنتها: الأم تريد أن تخلط اللبن طمعًا فى زيادة الربح، والبنت المؤمنة تذكّرها بمنع أمير المؤمنين لهذا الأمر، فتقول الأم: وهل أمير المؤمنين يرانا؟ فترد الابنة بهذا الجواب الذى نبع من قلبٍ مؤمن بالله، ويعلم أن الله مطلع عليه، قالت: إن كان أميرُ المؤمنين لا يرانا، فرب أمير المؤمنين يرانا، فما كان من عمر الذى سمع تلك المقالة من هذه الفتاة الصالحة المراقبة لله عز وجل إلا أن قام إلى أولاده، وقال: ليذهب أحدكم إلى تلك الفتاة فليتزوجها، فإنى لأرجو الله أن يُخرج من أصلابها رجلاً يوحّد الله به كلمة المسلمين،... وكان الذى توقعه عمر رضى الله عنه، فقد تزوجها ابنه عاصم، فأنجبت له بنتًا سموها ليلى وكنّوها بأم عاصم، ثم تزوجت ليلى بعبد العزيز بن مروان، فأنجبت له الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذى قاد المسلمين إلى كل خير،... وهكذا تكون نتيجة المراقبة لله جل وعلا.

وقال عبد الله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطاب رضى

الله عنه إلى مكة فانحدر بنا راعٍ من الجبل، فقال له عمر ممتحنًا له: يا راعى بعنى شاة من هذه الغنم، فقال: إنى مملوك، فقال عمر: قل لسيدك أكلها الذئب (يريد أن يختبره) فقال الراعى: فأين الله؟ فبكى عمر رضى الله عنه ثم غدا مع المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه، وقال له: أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك فى الآخرة».

وهذا عبد الله بن مسعود الذى راقب الله جل وعلا فتأمل معى كيف كان جزاؤه؟! يقول ابن مسعود: كنت أرعى غنمًا لعقبة ابن أبى معيط، فمرَّ بى رسول الله ﷺ وأبو بكر فقال: يا غلام هل من لبن؟ قلت: نعم، ولكنى مؤتمن. قال: فهل من شاة لم ينزُ عليها الفحل؟ (أى لا تُخرج لبنًا) فأتيته بشاة، فمسح ضرعها، فنزل لبن، فحلب فى إناء، فشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للضرع: اقلص فقلص، ثم أتيته بعد هذا فقلت: يا رسول الله! علّمنى من هذا القول، فمسح رأسى وقال: يرحمك الله إنك غليِّم مُعلَّم» (رواه أحمد بسند حسن).

فكان من نتيجة هذه المراقبة أن الله جعله من المسارعين للدخول فى الإسلام، ثم خصه النبى ﷺ بنعمة عظيمة ألا وهى أنه قال للصحابة: «خذوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود، وأُبىّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبى حذيفة» (صحيح الجامع: ٣٢١٣)، فكان ابن مسعود فى مقدمة

هؤلاء...

وقال ابن مسعود: كنت أجتنى لرسول الله ﷺ من الأراك (ليأتيه بالسواك) قال: فضحك القوم من دقة ساقى، فقال النبى ﷺ: مم تضحكون؟ قالوا: من دقة ساقيه. فقال: «والذى نفسى بيده لهى أثقل فى الميزان من أُحد» (رواه أحمد بسندٍ حسن)

أى أثقل فى الميزان من جبل أُحد... فعليك يا أخى أن تراقب الله فى السر والعلن؛ فإنه سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

ولذا كان الأندلسى يعظ ابنه فيقول:

وإذا خلوت بريبة فى ظُلمة والنفس داعية إلى الطغيان
فاستحيى من نظر الإله وقل لها إن الذى خلق الظلام يرانى

وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل علىّ رقيب
ولا تحسبنّ الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

فحذار أن تُظهر للناس صلاحك وتبارز بالمعاصى من هو أقرب إليك من حبل الوريد، بل كن أمينًا فيما بينك وبين ربك ولا تنس رقابة الله.

كلمات من نور

وعن كنانة بن جبلة السلمى قال: قال بكر بن عبد الله: إذا رأيت مَن هو أكبر منك فقل: هذا سبقنى بالإيمان والعمل الصالح فهو خير منى، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل: سبقته إلى الذنوب والمعاصى فهو خير منى، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظّمونك فقل: هذا فضلٌ أُخذوا به، وإذا رأيتَ منهم تقصيرًا فقل: هذا ذنب أحدثته.

وعنه القاسم بن محمد قال: كنا نسافر مع ابن المبارك فكثيرًا ما كان يخطر ببالى فأقول فى نفسى: بأى شىءٍ فُضِّل هذا الرجل علينا حتى اشتهر فى الناس هذه الشهرة؟ إنْ كان يصلى إنَّا لنصلى، ولئن كان يصوم إنَّا لنصوم، وإن كان يغزُو، فإنا لنغزو، وإن كان يحج إنَّا لنحجّ.

قال: فكنا فى بعض مسيرنا فى طريق الشام ليلةً نتعشَّى فى بيت إذ طُفِئ السراجُ فقام بعضنا فأخذ السراج (وخرج يستصبح فمكّث هنيهة ثم جاء بالسراج) فنظرتُ إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع، فقلت فى نفسى: بهذه الخشية فُضِّل هذا الرجل علينا، ولعله حين فَقدَ السراج فصار إلى الظُّلمة ذَكَرَ القيامة (صفة الصفوة: ٤/ ١٤٥).

وعن ابن مسعود أنه كان يقول إذا قعد: إنكم فى ممر الليل

والنهار فى آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموتُ يأتى بغتة، من زرع خيرًا يُوشكُ أن يحصدَ رغبة، ومن زرع شرًا يُوشكُ أن يحصد ندامةً (السير للذهبى: ١/ ٤٩٧).

وعن ابن شوذب قال: لما حضرت أبا هريرة الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: بُعد المفازة وقلة الزاد وعقبة كؤودٌ، المهبطُ منها إلى الجنة أو النار.

من كان لله كما يريد كان الله له كما يريد

كان (المبارك) عبدًا رقيقاً أعتقه سيده، ثم اشتغل أجيرًا عند صاحب بستان، وفى ذات يوم خرج صاحب البستان مع أصحاب له إلى البستان، وقال للمبارك: ائتنا برمان حلو فقطف رمانات ثم قدمها إليهم، فإذا هى حامضة، فقال صاحب البستان: أنت ما تعرف الحلو من الحامض؟ قال: لم تأذن لى أن آكل حتى أعرف الحلو من الحامض... فقال له: أنت من كذا وكذا سنة تحرس البستان وتقول هذا (وظن أنه يخدعه) فسأل الجيران عنه، فقالوا: ما أكل رمانة واحدة. فقال له صاحب البستان: يا مبارك... أريد أن أستشيرك فى أمرٍ هام... إننى ليس عندى إلا ابنة واحدة فلمن أزوجها؟ فقالَ له: يا سيدى لقد كان اليهود يزوجون للمال، والنصارى للجمال، والعرب للحسب، والمسلمون يزوجون للتقوى، فمن

أى الأصناف أنت زوج ابنتك للصنف الذى أنت منه. فقال: والله لا أزوجها إلا على التقوى وما وجدت إنسانًا أتقى لله منك فقد أعتقتك وزوجتك ابنتى!!!. سبحان الله عفّ المبارك عن رمانة من البستان فسيق إليه البستان وصاحبته، والجزاء من جنس العمل، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، . . . ومن هذا البيت خرج شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك الذى كان يقول: لأن أردّ درهمًا من شُبهة خير لى من أن أتصدق بمائة ألف درهم، ومائة ألف درهم. . . حتى عد ستمائة ألف درهم ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ (الأعراف: ٥٨).

من كان لله كما يريد كان الله له كما يريد.

المراقبة سبيلك إلى التقوى

إن العبد إذا راقب ربه فى كل صغيرة وكبيرة وداوم على ذلك؛ فإنه لا شك أنه سيصبح من المتقين، ولذا قال ﷺ لواحد من أصحابه: «أوصيك أن تستحى من الله تعالى كما تستحى من الرجل الصالح من قومك» (صحيح الجامع: ٢٥٤١).

وقال ﷺ لأبى ذر: «أوصيك بتقوى الله تعالى فى سرِّ أمرك وعلانيته، وإذا أسأت فأحسن ولا تسألن أحدًا شيئًا ولا تقبض أمانة ولا تقض بين اثنين» (صحيح الجامع: ٢٥٤٤).

نعم والله.. فخشية الله فى الغيب والشهادة من المنجيات

ومن أسباب حصول العبد على درجة التقوى التى هى مفتاح كل خير.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل: أوصيك بتقوى الله عز وجل التى لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ولا يثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل، جعلنا الله وإياك من المتقين. ولما ولى خطب فحمد الله وأثنى عليه وقال: أوصيكم بتقوى الله عز وجل، فإن تقوى الله عز وجل خَلَف من كل شىء وليس من تقوى الله خلف.

وقال رجل ليونس بن عبيد: أوصنى، فقال: أوصيك بتقوى الله والإحسان، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وقال الشافعى: أعزّ الأشياء ثلاثة: الجود من قِلة، والورع فى خلوة، وكلمة الحق عند من يُرجى أو يُخاف.

ودخل بعضهم غيضة (مكان به شجر كثير) فقال: لو خلوت ههنا بمعصية فمن كان يرانى؟ فسمع هاتفًا بصوت ملأ الغيضة يقول: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤).

ورأى محمد بن المنكدر رجلاً واقفاً مع امرأة يكلمها فقال: إن الله يراكما سترنا الله وإياكما..

وقال الحارث المحاسبى: المراقبة علم القلب بقرب الرب.

وفى الجملة فتقوى الله فى السر هو علامة كمال الإيمان،

وله تأثير عظيم فى إلقاء الله لصاحبه الثناء فى قلوب المؤمنين.

قال أبو الدرداء: ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر، يخلو بمعاصى الله فيلقى الله له البغض فى قلوب المؤمنين. قال أبو سليمان: إن الخاسر من أبدى للناس صالح عمله وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد. ومن أعجب ما روى فى هذا ما روى عن أبى جعفر السائح قال: كان حبيب أبو محمد تاجراً يكرى الدراهم، فمرّ ذات يوم بصبيان فإذا هم يلعبون، فقال بعضهم لبعض: قد جاء آكل الربا فنكس رأسه، وقال: ياربّ أفشيت سرى إلى الصبيان، فرجع فجمع ماله كله. وقال: يارب إنى أسير وإنى قد اشتريت نفسى منك بهذا المال فأعتقنى، فلما أصبح تصدّق بالمال كله وأخذ فى العبادة، ثم مرّ ذات يوم بأولئك الصبيان، فلما رأوه قال بعضهم لبعض: اسكتوا فقد جاء حبيب العابد، فبكى وقال: يارب أنت تذم مرّة وتحمد مرّة وكله من عندك.

هكذا تكون مراقبة الله عز وجل، وهكذا كان حال سلفنا الصالح مع نعمة المراقبة لله جل وعلا.

الجوارح والأركان تعترف بجرائم الإنسان

اعلم أيها الأخ الكريم وأيتها الأخت الفاضلة أن تلك الجوارح ستشهد علينا يوم القيامة؛ لأن الله هو الذى يُنطقها لتكون حُجة على صاحبها فلا يستطيع أن ينكر شيئاً من ذنوبه.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (النور: ٢٤ ـ ٢٥).

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس: ٦٥).

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (فصلت: ١٩ ـ ٢٤).

قال أنس رضي الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال: «أتدرون مما أضحك» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من

مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرنى من الظلم؟» قال: «يقول بلى» قال: «فيقول فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهداً منى... فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً وبالكرام الكاتبين شهوداً» قال: «فيُختم على فيه، ويقال لأركانه انطقى» قال: «فتنطق بأعماله ثم يُخلى بينه وبين الكلام، فيقول لأعضائه: بُعداً لكنّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل» (أخرجه مسلم)

فاتق الله يا أخى فى تلك الجوارح لا تسعَ بها إلى المعاصى، بل اجعلها تعمل فى طاعة الله جل وعلا، فإن الجوارح ستنطق وتتكلم وتخبر بما عملته، وهذا ليس بعجيب إذا ما علمت أن الأرض التى هى من الحجارة والصخور سوف تتكلم وتخبر بكل ما حدث على ظهرها: ﴿**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا**﴾ (الزلزلة: ٤ ـ ٥).

جبال من الحسنات يجعلها الله هباءً منثوراً!!!

قال ﷺ: «لأعلمنَّ أقواماً من أمتى يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء فيجعلها الله هباءً منثوراً. أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون ولكنهم قوم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها» (صحيح الجامع: ٥٠٢٨). ولذلك فلابد للعبد أن يراقب الله فى خلوته وفى جلوته وفى كل زمان ومكان.

ولقد أجزل الله العطاء لمن راقبه فى السر والعلن فقال جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الملك: ١٢).

الرقابة وأثرها فى حياة الفرد والأمة

إن مراقبة الله تحيى القلوب الموات وتوقظ الضمائر النائمة وتجعل من الإنسان نموذجاً فريداً يندر وجوده بين سائر البشر فهو لا يخطو خطوة ولا يضعها إلا وهو يسأل نفسه: هل هذا العمل يرضى الله أم لا؟ فتجد أن سكناته وحركاته كلها لله. وإذا راقب كل واحد منا ربه فإن الأمة بأسرها ستعيش فى مأمن من كل سوء لأن أبناء الأمة قد سلكوا طريق النجاة وعاشوا فى طاعة الله فجلبوا الخير للأمة وحجبوا عنها كل شر بطاعتهم لربهم ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦).

وها هى الأمثلة على أن الرقابة تجعل المجتمع المسلم مجتمع خير وأمن وأمان ومحبة وإخاء.

الرقابة تقود المؤمن لكى يعترف بجرائمه

إن المؤمن ينأى بنفسه عن الوقوع فى الشبهات، فضلاً عن

الحرام، ولكنه إذا اقترف ذنباً أو عمل جُرماً فإنه لا يخشى عقاب البشر، بل يخشى عقاب رب البشر سبحانه وتعالى فيذهب ويقوده إيمانه وأمانته لأن يعترف على نفسه بجُرمه ويطلب القصاص من نفسه يوم أن كانت الرقابة لله جل وعلا.

نعم إنه الإيمان الذى يُخرج لنا نماذج تذهب بنفسها إلى الحاكم لتعترف على نفسها بالجريمة؛ لأن خوفهم من الله أشد بكثير من خوفهم من البشر ــ فإذا كان القانون يفرض العقوبات الرادعة على كل من يرتكب الجرائم فإن الناس يبحثون دائماً عن ثغرات القانون ــ وما أكثرها لأنها ليست من عند الله ــ فيحاولون التفلت من زمام العقوبة على جرائم قد ارتكبوها أما إذا نظرنا إلى ما يفرضه قانون الإيمان على الفرد المؤمن فإن إيمانه يفرض عليه مراقبة الله فى السر والعلن، فإذا وقع فى الجريمة وجد الإيمان يقوده إلى أن يعترف على نفسه ويطلب القصاص من نفسه حتى يفوز بمغفرة الله ورضوانه ورجاء أن يكون ذلك كفارة له عن ذنبه وشفيعاً له إلى ربه ولا يخشى فى ذلك أن تُقطع يده أو أن يُرجم أو أن يُجلد!!

فها هو ماعز بن مالك الأسلمى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إنى قد ظلمتُ نفسى وزنيتُ وإنى أُريدُ أن تُطهِّرنى... فردَّه، فلما كان من الغد أتاه، فقال: يا رسول الله! إنى قد زنيتُ... فردَّه الثانية، فأرسل رسول الله ﷺ

إلى قومه فقال: أتعلمون بعقله بأساً تُنكرون منه شيئاً؟ فقالوا: ما نعلمهُ إلا وفيَّ العقلِ من صالحينا فيما نرى. فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضاً فسأل عنه، فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كان الرابعة حفر له حفرةً ثم أمر به فرُجِمَ. قال: فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله! إنى قد زنيتُ فطهِّرنى وإنه ردها فلما كان الغدُ قالت: يا رسول الله! لِمَ ترُدُّنى لعلك أن ترُدَّنى كما رددت ماعزاً، فوالله إنى لحُبلى. قال: إما لا فاذهبى حتى تلدى، فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة. قالت: هذا قد ولدته. قال: اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه، فلّما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرةُ خُبزٍ، فقالت: هذا يا نبيَّ الله قد فطمته وقد أكل الطعام، فدفع الصبى إلى رجلٍ من المسلمين ثم أمر بها فحُفِرَ لها إلى صدرها وأمر الناسِ فرجموها. . . فيقبل خالد بن الوليد بحجرٍ فرمى رأسها فتنضَّحَ الدمُ على وجه خالد فسبَّها، فسمع نبى الله ﷺ سبَّهُ إياها، فقال: مهلاً يا خالدُ فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبةً لو تابها صاحبُ مَكْسٍ لغُفِرَ له، ثم أمر بها فصلى عليها ودُفِنَت (أخرجه مسلم).

الرقابة تدفع المؤمن ليؤدي الحقوق المادية

يقول الدكتور يوسف القرضاوى فى كتابه «الإيمان والحياة»:

قد تفرض القوانين التى وضعها البشر لأنفسهم، أو يضعها لهم جماعة منهم ضرائب على أهل المال منهم مقابل ما تُقدِّم

لهم الدولة من خدمات، وأداءً لما يجب عليهم من مشاركة فى أعباء الأمة وواجباتها، ولكنا نجدهم يتهربون من أدائها بكل وسيلة، ويتحايلون على التخلص من التزامها بكل سبيل!!

وازن هذا بالزكاة فى الإسلام، تلك الضريبة التى فرضها الإيمان عبادة على المسلم، يَتقرّب بها إلى مولاه، ويُقدمها طيب النفس، راضى القلب، داعياً ربه: «اللهم اجعلها مغنماً ولا تجعلها مغرماً» محاولاً أن تكون من أطيب ما عنده وأفضله، يُحاسب نفسه قبل حساب جُباتها (العاملين عليها) وقد يبذل أكثر مما يُطلب منه موقناً أن ما عنده ينفد وما عند الله باق.ا. هـ.

فعن أُبىّ بن كعب قال: بعثنى النبى ﷺ مُصدقاً ــ جامعاً للصدقة ــ فمررت برجلٍ فلما جمع لى ماله لم أجد عليه فيه إلا ابنةَ مخاضٍ، فقلتُ له: أدِّ ابنة مخاضٍ فإنها صدقتك، فقال: ذاك ما لا لبن فيه ولا ظهر، ولكن هذه ناقةٌ فتيةٌ عظيمةٌ سمينةٌ فخذها، فقلت له: ما أنا بآخذ ما لم أُومر به، وهذا رسول الله ﷺ منك قريبٌ فإن أحببت أن تأتيه فتعرض عليه ما عرضت علىَّ فافعل فإن قبله منك قبلتهُ، وإن رده عليك رددته. قال: فإنى فاعلٌ، فخرج معى وخرج بالناقة التى عرض علىَّ حتى قدمنا على رسول الله ﷺ فقال له: يا نبى الله أتانى رسولك ليأخذ منى صدقة مالى، وايم الله ما قام فى مالى

رسول الله ﷺ ولا رسوله قطٌّ قبلهُ فجمعت له مالى، فزعم أنَّ ما عليَّ فيه ابنةُ مخاضٍ وذلك ما لا لبن فيه ولا ظهر وقد عرضتُ عليه ناقةً فتيةً عظيمةً ليأخذها فأبى عليَّ وها هى ذه قد جئتك بها يا رسول الله خُذها، فقال له رسول الله ﷺ: ذاك الذى عليك فإن تطوعت بخيرٍ آجرك الله فيه وقبلناه منك. قال: فها هى ذه يا رسول الله قد جئتك بها فخذها. قال: فأمر رسول الله ﷺ بقبضها ودعا له فى ماله بالبركة».

الرقابة تجعل المؤمن لا يأكل إلا حلالاً

إن الواجب على كل مسلم أن يسلك سُبل الحلال وينأى بنفسه عن مواطن الشبهة، فلا يأكل إلا الحلال ولا يُدخل بيته إلا الحلال... قال ﷺ: «يأتى على الناس زمان ما يبالى الرجل من أين أصاب المال؟ من حلال أو حرام»

(صحيح الجامع: ٨٠٠٣).

وقال ﷺ: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس ــ وذكر منهم ــ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه» (صحيح الجامع: ٧٢٩٩).

وتأمل معى كيف كان ورع أصحاب النبى ﷺ وعلى رأسهم (الصدّيق) رضى الله عنه... فعن عائشة رضى الله عنها قالت: «كان لأبى بكر الصديق رضى الله عنه غلام يُخرج له الخَراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشىء،

فأكل منه أبو بكر . . . فقال له الغلام: أتدرى ما هذا؟ . فقال أبو بكر: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان فى الجاهلية، وما أُحسن الكهانة إلا أنى خدعته، فلقينى فأعطانى لذلك. هذا الذى أكلت منه. . . فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شىء فى بطنه» (أخرجه البخارى).

الرقابة وأثرها فى إشاعة العدل

إن مراقبة الله توقظ ضمير المؤمن فتجعله يخاف أن يأتى يوم القيامة مفلساً من كثرة المظالم. . فتجده أحياناً يقتص من نفسه خوفاً من أن يلقى الله وعليه مظلمة لأحدٍ من الناس.

ذلك الضمير الذى جعل خليفة كعمرَ يدخل حائطاً لقضاء حاجة، فيسمعه أنس يقول ـ وبينهما جدار الحائط ـ: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين!! بَخٍ بَخٍ!! والله لتتقين الله بُنَىِ الخطاب، أو ليعذبنّك!!

هذا الضمير هو الذى جعله فى عام المجاعة المعروف بـ «عام الرمادة» لا يأكل إلا الخبز والزيت حتى اسوّد جلده، فيكلمهُ بعض الصحابة فى ذلك، فيقول: بئس الوالى أنا إن شبعتُ والناس جياع!

ويحدثنا الشعبى أن علياً رضى الله عنه ضاعت منه درع فوجدها عند نصرانى. فأقبل به إلى القاضى «شُريح» يخاصمه، وقال علىٌّ: هذه الدرع درعى ولم أبع ولم أهب. فقال شُريح

للنصرانى: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال النصرانى: ما الدرع إلا درعى وما أمير المؤمنين عندى بكاذب! فالتفت شُريح إلى علىٍّ وقال: يا أمير المؤمنين؛ ألك بيِّنة؟ فابتسم علىٌّ وقال: أصاب شُريح، ما لى بيّنة. فقضى بالدرع للنصرانى، فأخذها ومشى خُطوات ثم رجع. فقال: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يديننى إلى قاضيه فيقتضى فيقضى عليه، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. الدرع — والله — درعك يا أمير المؤمنين، سقطت منك وأنت منطلق إلى صفِّين. قال: أما إذ أسلمت فهى لك.

وهذا عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى الراشد الذى يقول فيه مالك بن دينار: يقولون: مالك زاهد!.. أىُّ زهد عندى؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا فاغرة فاها، فتركها جُملة!

أجل، فلم يكن له فى خلافته سوى قميص واحد يلبسه، فكان إذا غسلوه جلس فى المنزل حتى ييبس. وهو الذى نشأ وشَبَّ فى أحضان النعيم.

ودخل على امرأته يوماً فسألها أن تُقرضه درهماً يشترى به عنباً، فلم يجد عندها شيئاً.. فقالت له: أنت أمير المؤمنين وليس فى خزائنك ما تشترى به عنباً؟! فقال: هذا أيسر من معالجة الأغلال والأنكال غداً فى نار جهنم.

وقد اجتهد فى مدة ولايته ـ مع قصرها ـ حتى رد المظالم، وصرف إلى كل ذى حق حقه، وكان مناديه ينادى فى كل يوم: أين الغارمون؟ أين الراغبون فى الزواج؟ أين اليتامى؟ أين المساكين؟ حتى أغنى كُلاً من هؤلاء.

ومع عدله وزُهده، ورده للمظالم، وشدته على نفسه وأقاربه كان يُناجى ربه فيقول: اللهم إن عمر ليس أهلاً أن تناله رحمتك، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر.

وأثنى عليه رجل فقال له: جزاكَ الله عن الإسلام خيراً يا أمير المؤمنين. فقال: بل جزى الله الإسلام عنى خيراً.

الرقابة وأثرها فى المواساة والإيثار

وتتجلى آثار الرقابة فى هذا الأمر تجلياً لا تكاد تراه إلا فى زمن الصحابة رضى الله عنهم ومن تبعهم بإحسان.

فإن الرجل منهم كان يحب لأخيه ما يحب لنفسه وكان يبذل له من وقته وماله وجهده ما يبذله لأحب أولاده وأهله إليه، بل قد يرتقى به الإيمان حتى يؤثر أخاه على نفسه فيعطيه الشىء الذى هو فى أشدّ الحاجة إليه... كل ذلك يفعله ابتغاء مرضاة الله.

بعث معاوية بن أبى سفيان بثمانين ألف درهم إلى عائشة، وكانت صائمة، وعليها ثوب خَلَق، فوزعت هذا المال من ساعتها على الفقراء والمساكين ولَم تُبق منه شيئاً. فقالت لها

خادمتها: يا أم المؤمنين؛ ما استطعت أن تشترى لنا لحماً بدرهم تفطرين عليه؟ فقالت: يا بُنية؛ لو ذكرتينى لفعلتُ!

وروى ابن سعد أن عبد الرحمن بن عوف باع لعثمان بن عفان أرضاً له بأربعين ألف دينار، فقسّم ذلك فى الفقراء من أقاربه، وفى ذى الحاجة من الناس، وفى أمهات المؤمنين.

وعن طلحة بن عبد الله بن عوف قال: كان أهل المدينة عيالاً على عبد الرحمن بن عوف: ثلث يقرضهم ماله وثلث يقضى دينهم ويصل ثلثاً.

وذكر الغزالى فى الإحياء عن ابن عمر قال: أُهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة فقال: فلان أحوج إليه منى، فبعث به إليه. فبعث به هو أيضاً إلى آخر يراه أحوج منه، فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول، بعد أن تداوله سبعة!

وقد مدح الله عز وجل الأنصار بالإيمان والإيثار، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

وعن إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده قال: «لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع. قال لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالاً فاقسم مالى نصفين، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمِّها لى أطلقها، فإذا انقضت عدَّتها فتزوجها. قال: بارك الله لك فى أهلك ومالك. أين سوقكَم؟ فدلُّوه على سوق بنى قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغدوَّ يوماً، ثم جاء يوماً وبه أثر صُفْرة. فقَال النبى ﷺ: «مَهْيَمْ؟» قال: تزوجت. قال: كم سقت إليَّها؟ قال: نواةً من ذهب — أو وزن نواة من ذهب — شك إبراهيم.

وعن حذيفة العدوى قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمٍّ لى ومعى شىء من ماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، ومسحت به وجهه، فإذا أنَا به فقلت: أسقيك؟ فأشار إلىَّ أن نعم، فإذا رجل يقول: آه. فأشار ابن عمى إلىَّ أن انطلق به إليه، فجئته فإذا هو هشام بن العاص. فقلت: أسقيك؟ فسمع به آخر فقال: آه. فأشار هشام انطلق به إليه، فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات. . . . رحمة الله عليهم أجمعين.

وها هو رجل يؤثر إخوانه بالحياة لحظات!!!

فعن أبى العباس بن عطاء قال: سعى ساعٍ بالصوفية إلى الخليفة فقال: إن هاهنا قوماً من الزنادقة يرفضون الشريعة، فأخذ أبا الحسين النورى، وأبا حمزة، والدقاق، وتستّر الجنيد بالفقه، فكان يتكلم على مذهب أبى ثور، فأدخلوا على الخليفة فأمر بضرب أعناقهم، فبدر أبو الحسين إلى السيَّاف ليضرب عنقه! فقال له السياف: مالك بدرت من بين أصحابك؟! فقال: أحببت أن أوثر أصحابى بحياة هذه اللحظة، فتعجب السيَّاف من ذلك وجميع من حَضَرَ. وكتب به إلى الخليفة، فَرَدّ أمرهم إلى القاضى إسماعيل بن إسحاق، فقام إليه النورى، فسأله عن أصول الفرائض فى الطهارة والصلاة، فأجابه، ثم قال: وبعد هذا فإن لله عباداً يأكلون بالله، ويلبسون بالله ويسمعون بالله، ويصدرون بالله ويردون بالله. فلما سمع القاضى كلامه بكى بكاءً شديداً ثم دخل على الخليفة فقال: إن كان هؤلاء القوم زنادقة فما على وجه الأرض موحّد (تاريخ بغداد: ٥/ ١٣١).

فيا لها من مواقف من الإيثار لكل من راقب الله وآمن به وباليوم الآخر.

الرقابة وأثرها فى صدق المعاملة

إن الغالب على التجار أن الواحد منهم يسعى لكثرة الربح، سواءً كان من الحلال أم من الحرام (إلا من رحمه الله).

ولكن المؤمن الذى يراقب ربه لا يشغله الربح ولا تشغله الدنيا بأسرها، وذلك لأن يوقن بأن الرزق بيد الله، وأن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته. . . ولذا تراه يصدق فى بيعه وشرائه.

يروى الإمام الغزالى عن محمد بن المنكدر أنه كان له شُقق بعضها بخمسة دراهم، وبعضها بعشرة، فباع غلامه فى غيبته لأعرابى شُقة من الخمسيات بعشرة، فلما عاد ابن المنكدر وعرف، لم يزل يطلب ذلك الأعرابى المشترى طول النهار حتى وجده، فقال له: إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة. فقال الأعرابى: يا هذا، قد رضيتُ. فقال: وإن رضيتَ. فإنَّا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا، فاختر إحدى ثلاث خصال: إما أن تأخذ شُقة من العشريات بدراهمك، وإما أن نرد عليك خمسة، وإما أن ترد شُقتنا وتأخذ دراهمك. فرد عليه خمسة، وانصرف الأعرابى (الإحياء: ٣/٧٢).

بل لا أكون مبالغاً إذا قلت إن الإسلام انتشر فى بقاع الأرض بصدق المعاملة وأمانة البيع والشراء؛ لأن المسلم إذا كان صادقاً أميناً فى بيعه وشرائه فقد شهد للإسلام شهادة عملية كما شهد له من قبل شهادة قولية.

ما الذى يعينك على مراقبة الله

وأخيراً نختم هذا الكتيب بتلك الأمور التى تعينك على

مراقبة الله.

أولاً ـ التعرف على الله:

إن العبد كلما ازداد علماً بالله وأسمائه وصفاته واستحقاقه لجميع أنواع العبادة كلما ازداد حباً لله وخوفاً من عقابه.. ولذلك فيجب على المؤمن أن يعرف خالقه من خلال التعرف على أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وكذلك من خلال النظر والتأمل فى بديع صُنع الله.. وعندها ستجد لسانك يلهج بذكره ويقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١).

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر: ٦٧).

وقال أحد السلف الصالح: «لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت».

ولذا كان من دعاء النبى ﷺ: «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» (أخرجه مسلم).

عندها تعرف أنك أمام رب عظيم يجب أن يُطاع فى السر والعلانية، بل فى كل زمان ومكان؛ لأنك كلما ازدت علماً بالله كلما ازدت له خشية. . قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

ثانياً ــ أن تستحضر رقابته :

أن تحاول فى كل لحظة أن تستحضر رقابته سبحانه وتعالى ممتثلاً أمر النبى ﷺ: «اتق الله حيثما كنت»، وقوله ﷺ: «احفظ الله يحفظك»، وقوله ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وأن تتعرف على آيات قدرته ومراقبته لعبده فى كل ما يفعله فهو القائل ــ جل وعلا ــ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (الانعام: ٥٩).

وهو القائل سبحانه: ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (هود: ٥) وهو القائل سبحانه: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ

﴿يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (النساء: ١٠٨).

كل ذلك يجعلك أيها الأخ الحبيب تشعر بأنه مطلع عليك فى كل أحوالك فهو القائل سبحانه: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٤).

كل ذلك يعينك على أن تزداد فى طاعته وتبتعد عن معصيته، وهذا هو الهدف الأسمى والأعلى من رقابة الله تعالى.

ثالثاً ــ أن تستشعر نعمته عليك:

فهو القائل ــ جل وعلا ــ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠).

وقال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (إبراهيم: ٣٤).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (لقمان: ٢٠)

فكل ذرة فى جسدك من فضل الله ونعمته عليك. فحياتك كلها من آثار نعمته ورحمته.

ـ إن المؤمن عندما يتذكر نعمة ربه عليه (وكفى بالإسلام نعمة)، فإن ذلك يكون حادياً له لمحبة الله ولخشية الله ومراقبته.

رابعاً ـ التأسى برسول الله ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم

قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً**﴾ (الأحزاب: ٢١).

فمن تدبر سيرته وحياته ﷺ لوجدها من أولها إلى آخرها مليئة بحبه لله وخشيته من الله.. وقد جعله الله لنا الأسوة والقدوة التى يجب أن نتأسى بها، ولذا قال ﷺ عن نفسه: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية» (متفق عليه).

وعن أنس رضى الله عنه قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين. وفى رواية: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شىء فخطب فقال: «عُرِضت علىَّ الجنة والنار فلم أر كاليوم من الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم

كثيراً» فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه غطوا رؤوسهم ولهم خنين» (أخرجه البخارى).

فهذا كان حال رسول الله ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم، فمن أراد الخير فليتأس بهم.

خامساً - البُعد عن أصدقاء السوء والحرص على الرفقة الصالحة

قال ﷺ: «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» (صحيح الجامع: ٣٥٤٥).

فمصاحبة أهل الصلاح والتقوى تجعل المؤمن يستحى أن يعصى الله أمامهم، ومن ثَم فهو يتورع أن يعصى الله إذا خلا بربه... فوجوده بين الرفقة الصالحة بمثابة تدريب عملى على مراقبة الله تعالى. أما مرافقة أصدقاء السوء تجعلَ العبد يتجرأ على ربه ويبارزه بالذنوب والمعاصى أينما كان.

ومن هنا جاءت وصية الحبيب ﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقى» (صحيح الجامع: ٧٣٤١).

فالأخ الصالح يذكّرك بالله إذا نسيت ويعينك إذا ذكرت ويأخذ بيديك إلى مرضاة الله وإلى شاطئ النجاة، ومن ثَم إلى جنة الرحمن إخواناً على سُرِرٍ متقابلين.

فاحرص يا أخى على صحبة الصالحين قبل أن لا تجد واحداً

منهم؛ فإن من علامات الساعة الصغرى (ذهاب الصالحين) فقد قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يأخذ الله شريطته ــ أهل الخير والدين ــ من أهل الأرض فيبقى فيها عجاجة ــ هم الأراذل ومن لا خير فيهم ــ لا يعرفون معروفاً ولا يُنكرون منكراً»

(رواه أحمد بسندٍ صحيح)

أى: يأخذ الله أهل الخير والدين ويبقى غوغاء الناس وأراذلهم ومن لا خير فيهم، وهذا عند قبض العلم واتخاذ الناس رؤوساً جُهّالاً يفتون بغير علم.

سادساً ــ الخوف من موت الفجأة :

قال ﷺ: «إن من أمارات الساعة... أن يظهر موت الفجأة» (رواه الطبرانى بإسناد حسن).

وهذا أمرٌ مشاهَد فى هذا الزمن حيث كثر فى الناس موت الفجأة فترى الرجل صحيحاً معافى ثم يموت فجأة، وهذا ما يسميه الناس فى الوقت الحاضر بـ (السكتة القلبية) فعلى العاقل أن يتنبه لنفسه ويرجع ويتوب إلى الله تعالى قبل مفاجأة الموت.

كان الإمام البخارى رحمه الله يقول:

اغتنم فى الفراغ فضل ركوعٍ
فعسى أن يكون موتك بغتة

كم صحيحٍ رأيت من غير سُقمٍ

ذهبت نفسه الصحيحة فلته

قال ابن حجر: «وكان من العجائب أنه هو وقع له ـــ أي البخاري ـــ ذلك أو قريباً منه».

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ⁽٩⁾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (المنافقون: ٩: ١١). وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ⁽٩٩⁾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٩ ـــ ١٠٠).

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» (صحيح الجامع: ١٩٠٣)

فكل ذلك يجعل المؤمن يخاف أن يموت على معصية فيكون ذلك حادياً له على مراقبة الله في كل صغيرة وكبيرة.

سابعاً ـ الخوف من سوء الخاتمة:

إن الخوف من سوء الخاتمة طيَّر نوم العابدين وجعلهم دائماً خائفين وجلين يخشون من سوء الخاتمة.. فكان أحدهم يظل الليل كله يقرأ قوله تعالى: ﴿**وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾ (الزمر: ٤٧) ويبكى خوفاً من سوء الخاتمة.

وكان النبى ﷺ يدعو ويقول: «... وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت» (صحيح الجامع: ١٢٨٢).

بل كان أكثر دعاء النبى ﷺ: «يا مقلّب القلوب ثبّت قلبى على دينك» (صحيح الجامع: ٧٩٨٧).

بل تأمل معى أخى الكريم وأختى الفاضلة قول النبى ﷺ حيث يقول: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يُختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يُختم له عمله بعمل أهل الجنة» (متفق عليه). زاد البخارى: «وإنما الأعمال بخواتيمها».

كل ذلك يجعل المؤمن لا يأمن على نفسه من سوء الخاتمة فيراقب ربه ـ عز وجل ـ ويجتهد فى عبادته، وإن أذنب فهو يُسرع بالتوبة ويتضرع ويسأل ربه ـ عز وجل ـ حُسن الخاتمة ولسان حاله ومقاله: ﴿**رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا**

من لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ (آل عمران: ٨).

ثامناً ــ استحضار نعيم الجنة وعذاب النار:

إن اليقين فى اليوم الآخر بكل ما فيه من عذاب أو نعيم يجعل المؤمن فى حالة من اليقظة الدائمة؛ لأنه يعلم يقيناً أنه راحل عن تلك الدنيا الفانية ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ (الانشقاق: ٦).

والعاقل هو الذى يحاسب نفسه فى الدنيا ويُلزمها بطاعة الله كى يأخذ بناصيتها إلى جنة الرحمن ودار كرامته لأوليائه وأحبابه. والله ــ عز وجل ــ يذكر فى كتابه الكريم الكثير والكثير عن الجنة والنار من أجل أن تتهيأ النفوس المؤمنة وتجتهد من أجل الفوز بالسعادة الأبدية.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (هود: ١٠٦ : ١٠٨).

وقال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ (فاطر: ٣٣: ٣٧).

كل ذلك يجعل المؤمن يعلم أن الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة وأن الحياة الحقيقية لا تكون ولن تكون إلا فى جنة الرحمن ـ جل وعلا ـ ولذا قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد: ٢٠).

فيشعر أنه فى أشد الحاجة إلى أن يراقب ربه ليصل إلى بَر النجاة ويفوز برضوان الله فى جنة عرضها السماوات والأرض. فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فكل نعيم دون الجنة سراب، وكل عذاب دون النار عافية.

وأخيراً أيها الأخ الحبيب وأيتها الأخت الفاضلة: لابد لنا من وقفة مع النفس نحاسبها ونراقبها لنبدأ صفحة جديدة مع الخالق – جل وعلا – ولسان حالنا ومقالنا ﴿ **وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى** ﴾ (طه: ٨٤).

ولنتذكر جميعاً قول الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾ (الحديد: ١٦)

فمن كان على معصية فليتب إلى الله وليسرع إلى مرضاة الله فإن الإنسان لا يدرى متى تأتيه المنية ولا يدرى على أى شىء يموت، فاحرص على طاعة الله وإن وقعت فى ذنب فلا تيأس ولا تقنط من رحمة الله، فإنه أرحم الراحمين، وقد قال

فى كتابه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣).

فأسأل الله أن يجعلها ساعة توبة، وأن يجعل تلك الكلمات التى خرجت من قلبٍ يحب الخير لإخوانه وأخواته خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها المسلمين فى كل زمان ومكان، وأن يجمعنا جميعاً فى جنته إخواناً على سُرُرٍ متقابلين.

سبحانك اللهم وبحمدك. أشهد أن لا إله إلا الله أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار

محمود المصرى (أبو عمار)

• محتويات الكتاب •